

بين مرحلتين

ونشده ، وقد انتشيت لهذه الصياغة المفرغة في هذا القلب من التركيب الرائع .

والحق أن هذا قانون من قوانين الكون ، فالكمال لازال ولن يزال فوق مقدور البشر لأن يحدوا الحدود له ، ولعل الخير كل الخير في عدم الاستطاعة لأنه لو رسمت للكمال حدود لادعى الكثير بأنه قد وصل إليه ولا مست لكنا ، التطور ، ود الرقي ، بدون معنى .

كررت القراءة لتلك العبارة ثم تساءلت : ترى إلى هذا الحد يتهيب الأستاذ المؤلف فيصدر كتابه بتلك العبارة؟ ويتيب من؟ من القراء وهم طلابه الذين أخرج هذا الكتاب خصيصاً لهم؟ ! لكأنه بوضعه لتلك العبارة في الصدر من كتابه يريد أن يقول يا قارئ الكتاب إنك إن وقعت على خطأ في مجال التعبير ، أو في مجال السرد والعرض لفكرة ما - والكتاب بل الكتب الجامعية كلها - بحر زاهر متلاطم الأفكار والنظريات - إنك إن وقعت على خطأ وكل الناس مريض له فتعمل لتمنع النظر كما تتجلى الحقائق أمام نفسك فتستوثق منها وتتأكد من صحتها . إنه إذن يفترض فيك الروية والإمعان أو على الأصح بوحى إليك بأن تكون كذلك ، وما عليك إلا أن تستجيب له وها هو ذا ينزل من عليائه - وهو الأستاذ وأنت الطالب - ليلقاك في منتصف الطريق فتسيراً معاً : يلقي إليك بالفكرة فلا تسلمها إلا بعد الاستيثاق والاستئذان في مآتها ومداخلها .

نعم هكذا يخاطبوننا في حياتنا الجديدة وهكذا يوحون إلينا حتى إذا ما أسلستنا الجامعة ، إلى ثغر الحياة الواسع الرحب وجدنا في كل ذلك ما ينير السبل أمامنا ويشد أزرنا . وإنه لدرس جديد نلقاه ونحن لم نكد نستقر بعد على أل عتبة من عتبات الجامعة .

« هو »

بدخولي الجامعة ، أقبلت على حياة جديدة لمستها وتبينتها من الكتب التي كنت أقرأ فيها ، وهذه الجديدة التي أدرسها الآن ؛ ومن أسلوب تلك وأسلوب هذه ، ومن اختلاف طرق الشرح والتبيين لمدرسي الجدد ، ومدرسي القدماء الذين خلفتهم ورأى .

قرأت كتب الدراسة الثانوية ، وهأنذا الآن أدرس في الكتب الجامعية فعرفت الفرق بين التثويش والاضطراب في تلك ، وبين الانسجام والاتساق في هذه .

وعرفت التفاهة والسطحية - أو هكذا خيل لي - في أسلوب بعض تلك الكتب ، ولمست العمق ، واتساع الفكر ، وحلاوة البيان ، في هذه .

وأكثر من هذا تبينت في حياتي الجديدة مدى الاعتراف بوجودي كشخص يفهم ما للسؤولية من معنى ؛ فرأيت الأنظمة والقوانين التي تحكمني في هذه المرحلة الجديدة ، مغايرة لتلك التي كنت عليها والتي كنت أحس بثقلها على نفسي وشعوري ، فأنا الآن أقرب إلى الانطلاق والحرية الحرية التي يفصلها عن القوضى مدى شاسع ولا يصح الخلط أبداً بين الحالتين كما يحلو لبعض - مع الأسف الشديد - عن عمد وعن غير عمد .

وأسمى من كل هذا وأجل وجدتهم يخاطبونني - في هذه المرحلة الجديدة - كمن شب عن الطوق لا من قصر عنه ، وفي هذا مافيه من خلق وتهمة وإعداد .

اشتريت كتي الجديدة المقررة لهذا العام فقرأت في إحداها هذه الكلمة البليغة العميقة ، جاءت كتصدير للكتاب :

« لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ؛ ولو قدم هذا لكان أفضل ؛ ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر . »

الله أكبر . . . فقد خشعت لهذا الفهم العميق للكمال